

أدب الرحلات لدى أبي القاسم سعد الله بين الدراسة التاريخية والإبداع الأدبي

Voyage Literature in Abul Kacem Saad Allah between Historical Studies and Literary Creativity

الدكتور: كمال بن عمر Kamal Ben Amor

قسم اللغة و الأدب العربي – كلية الآداب و اللغات

جامعة الشهيد حمّـة لخضر بالوادي - الجزائر

مخبر بحوث في الأدب الجزائري ونقده، جامعة الوادي

الإيميل: bayane114@gmail.com

ملخص :

يكشف أدب الرحلات لدى أبي القاسم سعد الله عن أبرز الملامح المميّزة لشخصيته العلمية في بعدها: التاريخي والأدبي. ففي مجال الدراسة التاريخية، تبين لنا أنّ سعد الله يتّسم بسعة الاطلاع، والمنهجية العلمية في التحليل والمعالجة والتوثيق، إلى جانب الدقة والوضوح في اللغة العلمية، مع استدعاء ثقافته الأدبية والنقدية في المواضيع التي تقتضي ذلك. أما في المجال الإبداعي، فإن أدب الرحلات عنده يبرز بعض السمات المتعلقة بهذا النمط من الكتابة لديه كدقة الملاحظة، والقدرة على استيعاب المشهد الموصوف، أو الموضوع المعبر عنه، بالإضافة إلى الشجاعة الأدبية المتمثلة في تسجيل الوقائع، وإبداء الرأي بشكل موضوعي على الرغم من حساسية بعض المواقف أحيانا خصوصا من الناحية السياسية، إلى جانب امتلاكه لخاصية الأسلوب الأدبي الجميل كلما اقتضى الأمر ذلك. ولقد ظلّ ظلُّ الباحث المؤرخ ملازما لسعد الله حيثما حلّ أو ارتحل من خلال ولعه البالغ بالمكتبات وما فيها من وثائق ومراجع ومخطوطات. كلمات مفتاحية : أدب الرحلات؛ أبو القاسم سعد الله؛ الدراسة التاريخية؛ الإبداع الأدبي.

Abstract:

Voyageliterature in Abul Kacem Saad Allah reveals the most pertinent, distinguishing features of his scientific personality in both its historical and literary dimensions. In the field of history, we found out that Saad Allah is characterized by erudition, by the use of the scientific methodology in analysis, processing and documentation, by

his accurate and clear scientific language, and by his ability to recall literary and critical culture when necessary. In the field of creativity, voyageliterature in Saad Allah shows some features related to this type of writing like the accurate observation, the ability to assimilate the scene being described or the topic under discussion. In addition to his moral courage namely in recording facts, expressing objective opinions despite the sensitive situations, especially, political ones. As well as, his ownership of beautiful literary style when needed. Saad Allah's historical background has been always present wherever he goes. This is clearly revealed by his extreme fondness of libraries and its documents, references and manuscript

Keywords: Abul Kacem Saad Allah, history, literary creativity, voyageliterature

1. مقدمة:

يندرج هذا المقال ضمن إطار علمي عام يعرف في الدراسات الأدبية بمصطلح "أدب الرحلة"، أو "أدب الرحلات". وقد كتب فيه القدماء والمحدثون. وهو جنس أدبي يتميز بموضوعه الخاص المرتبط أساساً بوصف الرحلة وما جرى فيها، كما يتميز بخصائصه الفنية التي يستقلّ ببعضها، ويتقاطع في بعضها الآخر مع أجناس أدبية أخرى كالقصة والمقالة الأدبية.

وأدب الرحلات حقل معرفي مشترك يعنى به دارسو التاريخ، والجغرافيا، وعلم الاجتماع، والانثروبولوجيا وغيرها.

أما الإطار العلمي الخاص لهذا المقال، فيتعلق بمقاربة أدب الرحلات لدى الباحث المؤرخ، والأديب الناقد أبي القاسم سعد الله خصوصاً من خلال كتابيه: "تاريخ الجزائر الثقافي . الجزء الثاني"، و"تجارب في الأدب والرحلة".

والإشكالية الجوهرية التي تقوم عليها هذه الورقة البحثية يمكن صياغتها على النحو الآتي:

إلى أي مدى عكس أدب الرحلات عند أبي القاسم سعد الله أبرز الملامح المميّزة لشخصيته العلمية في بعدها: التاريخي والأدبي؟

وفي ضوء هذه الإشكالية، يفترض البحث أن الدراسة التاريخية التي قام بها أبو القاسم سعد الله لعدد من الرحلات المدوّنة بوصفها مصادر للمادة التاريخية التي يبحث فيها في إطار مشروعه الكبير: "تاريخ الجزائر الثقافي"، قد كشفت عن أهم السمات العلمية للباحث المؤرخ سعد الله كسعة الاطلاع، والتزام المنهج العلمي في التحقيق والتدقيق والتوثيق، كما يفترض أن الثقافة الأدبية والنقدية التي عرف بها سعد الله قد برزت بشكل أو بآخر. من خلال بحثه التاريخي في الرحلات المدونة بحكم الطابع الثقافي للمادة التاريخية محلّ البحث.

ويرجع البحث أن الاهتمام التاريخي كان له النصيب الأوفر لدى المؤرخ سعد الله حتى في رحلتيه المكتوبتين إلى المغرب وإلى الحجاز، ذلك أن الدافع التاريخي كان هو الأساس في الرحلتين كلتيهما. بيد أن ذلك لا يمنع من حضور بعض السمات المميّزة لأدب الرحلات لدى سعد الله الأديب باعتبار موهبته المعروفة في الإبداع الأدبي.

أما منهج البحث في هذا المقال فهو المنهج الوصفي؛ حيث كان هو الأساس عند تناول أدب الرحلات في دراسات سعد الله التاريخية، وأدب الرحلات في إبداعات سعد الله الأدبية.

وبخصوص أهداف البحث، فلعلّ من أهمّها ما يأتي:

- إبراز أهم الخصائص الفنية لأدب الرحلات.

- بيان أهمية أدب الرحلات بوصفه عابرا للتخصصات.

- الكشف عن أبرز السمات العلمية لشخصية سعد الله في بعدها: التاريخي والأدبي.

- معرفة بعض آراء سعد الله ومواقفه حيال بعض القضايا المهمة.

2. مفهوم أدب الرحلات وأهميته:

شاع في العصر الحديث مصطلح " أدب الرحلات "، أو " أدب الرحلة " للدلالة على أحد أنماط فنون القول التي ارتبطت تحديدا بالرحلة، واتخذتها موضوعا محوريا لها.

ولقد أثر بعض الباحثين ممن كتبوا في هذا الفن إطلاق مصطلح آخر عليه، وهو مصطلح "الأدب الجغرافي"¹ انطلاقاً من هيمنة البعد الجغرافي عليه منذ العصور القديمة؛ فهو يصف طبيعة الأرض وتضاريسها، ومناخها، وتوزيع سكانها، وأنماط معيشتهم، وأوجه نشاطهم الزراعي والصناعي والحرفي والثقافي، وأبرز عاداتهم وتقاليدهم وطقوسهم... إلى غير ذلك مما يعنى به الجغرافيون.

وقد نوه بعض الدارسين لهذا الفن عند العرب بهذا الفضاء الواسع المتنوع الذي يصوره أدب الرحلات بما يجعله يتميز عن بقية فنون القول بتعرضه لجميع نواحي الحياة أو يكاد. يقول أحد هؤلاء الدارسين: "إذا قلنا أنّ فنّاً من فنون القول العربي يعرض في مضمونه إلى ناحية أو إلى أخرى من نواحي الحياة، فإننا نقول أنّ نمط الرحلات يتعرّض إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد، إذ تتوفّر فيه مادة وفيرة ممّا يهمّ المؤرّخ والجغرافي وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرّخي الآداب والأديان والأساطير"².

وفي ضوء ما تقدّم، ومادامنا بصدد بيان مفهوم أدب الرحلات، آثرنا أن نختار من بين العديد من التعريفات التي اطلعنا عليها بخصوص هذا الفنّ من القول التعريف الآتي لما يتّسم به من شمول يؤكّد ما أوضحناه آنفاً. جاء في نصّ هذا التعريف ما يأتي: "أدب الرحلات... نوع من الأدب الذي يصوّر فيه الكاتب ما جرى له من أحداث، وما صادفه من أمور في أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان. وتُعدّ كتب الرحلات من أهمّ المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، لأنّ الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهدة الحيّة والتصوير المباشر، ممّا يجعل قراءتها غنيّة وممتعة ومسلية. عدد كبير من الروايات والقصص يمكن أن يندرج بصورة ما تحت مسمّى أدب الرحلات؛ فهذا المسمّى الواسع كما ترى قادر على استيعاب أعمال ابن بطوطة وماركو بولو وتشارلز داروين وأندريه جيد، وأرنست همنجواي ونجيب محفوظ وغم التباين الكبير فيما بينهم، لأنّ الفكرة التي تجمعهم هي فكرة الرحلة نفسها، الرحلة الزمانية، أو المكانية، أو النفسية"³.

ويمكننا أن نستشفّ من خلال التعريف السابق بعض جوانب الأهمية التي يكتسبها أدب الرحلات، الأمر الذي جعله يحتضن في يسر ومرونة العديد من الحقول المعرفية في قالب فنيّ وجمالي يجمع بين الإمتاع والإفادة. وممّا لا ريب فيه أنّ هذه الأهمية التي نجدها في أدب الرحلات مستمدّة في جانب كبير منها من الرحلة نفسها وما تتيحه للرحالة من ألوان المتع والفوائد. ويتأكّد هذا الأمر إذا كان

الرحالة أديبا أربيا بارعا في تدوُّق الجمال ونقله إلى الآخرين بريشة الفنّان المبدع وما يميّز به من مهارات فائقة في التصوير والتعبير والتأثير.

ولقد أشاد المؤرّخون والشعراء والكتّاب وغيرهم على مرّ العصور بالأهمية البالغة التي يجدها الإنسان في الأسفار والرحلات باعتبار الفوائد الجمة التي يجنيها المسافر المرتحل خصوصا إذا كان من أهل العلم، أو الفنّ والأدب. وفي هذا السياق، يقول المؤرّخ الرحالة أبو الحسن علي المسعودي صاحب كتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر":

"ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نبى إليه من الأخبار من إقليمه كمن قسّم عمره على قطع الأقطار، ووزّع بين أيّامه تقاذف الأسفار، واستخراج كلّ دقيق من معدنه، وإثارة كلّ نفيس من مكمّنه". ويقول "سافاري" وهو أحد الكتّاب الفرنسيين في القرن الثامن عشر: "إنّ الرحلات تشكّل أكثر المدارس تثقيفا للإنسان"⁴.

وفي السياق ذاته، يقول الشاعر والكتّاب الانجليزي الأمريكي المولد "توماس سترنس إليوت" (1888-1965) الحائز على جائزة نوبل عام 1948: "ارتحلوا... انطلقوا أيّها الرّحّالة، فأنتم لستم نفس الأشخاص عند بدء الرحلة"⁵.

من أجل ذلك، كانت الأسفار والرحلات من أهمّ العوامل التي تسهم في تكوين الإنسان، وتثقيفه، وتوسيع مداركه، وصقل مواهبه. وقلّما تجد في كتب السير والتراجم عالما أو أديبا إلّا وله نصيب من الأسفار والرحلات. قلّ أو كثر. كان له دور كبير في تكوينه العلمي أو الأدبي، وفي بناء شخصيته الإنسانية المتميّزة من خلال ما اكتسبه في حلّه وترحاله من معارف وخبرات وتجارب حصّلها بالملاحظة والمعايشة والمخالطة والتبادل.

1.2. أنماط أدب الرحلات:

تتحدّد أنماط أدب الرحلات بحسب الدوافع والأغراض التي تقف من وراء الرحلة من ناحية، وبحسب اهتمامات الرحالة من ناحية ثانية.

فأمّا الدوافع والأغراض المتعلقة بالرحلة، فهي متعدّدة ومتنوّعة. ولعلّ من أهمّها وأبرزها ما يأتي:

- الدوافع الدينية: كرحلات الحجّ، والدعوة إلى الله، والجهاد... الخ.

- الدوافع العلمية والتعليمية: وذلك لطلب العلم، أو نشره في شتى مجالات المعرفة الإنسانية.

. الدوافع السياسية: لإبلاغ المراسلات بين الحكّام، وتبادل السفراء والوفود، والمصالح، وغير ذلك من الشؤون السياسية.

. الدوافع الاقتصادية: لغرض التجارة، وتبادل السلع، وطلب العمل، وغيرها.

. الدوافع السياحية والثقافية: لغاية الاستمتاع بجمال الطبيعة، وتغيير الأجواء، ومعرفة طبائع البشر، وأحوال الناس، وأنماط معيشتهم، وعاداتهم وتقاليدهم، وزيارة المعالم الأثرية، إلى غير ذلك من الأغراض.

. الدوافع الصحيّة: كالسفر لطلب العلاج، والاستشفاء، وإراحة النفس من أسباب الكدر والعناء كما جاء في القول المأثور: " سافروا تصحّوا " ⁶.

وبناء على هذه الدوافع، تتميّز اهتمامات الرحالة من حيث الجوانب التي يُعنون بها أكثر من غيرها وصفاً وتصويراً في الغالب، وتحليلاً وتعليلاً في بعض النماذج من هذا الفن إذا اقتضى الأمر ذلك وفقاً لرؤية كلّ رحالة، وطبيعة اهتماماته، والأغراض التي من أجلها كتب رحلته.

وعلى العموم، فإنّ أبرز اهتمامات الرحالة لا تكاد تخرج عن الجوانب الآتية:

. المعالم الحضارية (مساجد، كنائس، معابد، متاحف، آثار تاريخية...الخ).

. وصف الأماكن جغرافياً.

. الاتّصال بالحكّام والسلطين.

. العلم والعلماء والمكتبات والمخطوطات.

. الطبقات الاجتماعية وأحوالهم الاقتصادية، وعاداتهم، وتقاليدهم، وأفكارهم ⁷.

وبناء على ما ذكر من دوافع واهتمامات، يبرز نمط الرحلة، ويتحدّد طابعها: فتكون رحلة دينية، أو علمية، أو سياسية، أو سياحية...الخ.

وأياً كانت الدوافع والأغراض المتّصلة بالرحلة، والاهتمامات الغالبة على الرحالة ممّا يمنح الرحلة نمطها المميّز، وطابعها الخاص : فهناك جملة من الشروط والمواصفات ينبغي أن تتوفّر في الرحالة لاسيّما إن كان أديباً، لعلّ أهمّها قوة الملاحظة، وحبّ التطلّع، و يقظة الحواس، وحبّ المحاورّة، والرغبة في التحصيل، والحرص على التدوين والتسجيل، وعدم الاكتفاء بالاعتماد على الذاكرة ⁸.

2.2 - أبرز خصائص أدب الرحلات:

على الرغم من أنّ "أدب الرحلات" لا يندرج في إطار الأجناس الأدبية المعروفة كالشعر، والقصة، والمسرحية، والمقالة؛ بيد أنّه اكتسب نوعاً من الخصوصية بسبب ارتباطه الوثيق بموضوع محدّد هو الرحلة، فنُسب إليها، وعُرف بها.

ولئن صعب تصنيفه ضمن الأجناس الأدبية المذكورة آنفاً، إلّا أنّه يتّسم بقدر كبير من المرونة يسمح له بالانفتاح على تلك الأجناس جميعاً، فينتقي منها ما يناسب موضوعه، ويخدم أغراضه. لذلك يتبدّى أدب الرحلات بفسيفساء أسلوبية بديعة تغري القراء بجماليّاتها المتنوّعة؛ فهو لا يكاد يخلو من بعض الأشعار التي يختارها الرحالة الأديب، أو يبدعها هو نفسه إن كان يقرض الشعر، كما يأخذ هذا الفنّ من القصة طابعها السردى والوصفي، ومن المسرحية طابعها الحوارى إذا اقتضى الأمر ذلك، ويأخذ من المقالة ما تميّز به من تحليل وتعليل إلى جانب الوصف كما في فنّ المقالة الأدبية.

تلك إذن أبرز خصائص أدب الرحلات التي أشار إليها الباحثون الذين درسوا هذا الفنّ. يقول أحد هؤلاء الباحثين في هذا السياق: "وبرغم ما يتّسم به أدب الرحلات من تنوّع في الأسلوب من السرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف وغيره، فإنّ أبرز ما يميّزه أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد المشوّق، بما يقدّمه من متعة ذهنية كبرى"⁹. وهي الخصائص ذاتها التي أكّدها باحث آخر إذ ذكر "وضوح الحسن القصصي في سرد الأحداث واختيارها، وامتلاك ناصية السرد والرواية، وبراعة الوصف، والقدرة على جذب انتباه القارئ، وحسن ختام كلّ موقف بشكل ممتع ومثير"¹⁰

بقي أن نشير في هذا المقام إلى أنّ أدب الرحلات - بناءً على الخصائص المذكورة آنفاً - يندرج في القالب النثري. وهذا هو القالب الذي عرف به منذ العصور القديمة. بيد أنّ هذا لا يمنع من وجود بعض الاستثناءات المتمثلة في بعض النصوص الشعرية التي كانت الرحلة محورا أساسيا لها. ويغلب وجود هذا النوع من النصوص في مجال الشعر الشعبي لاسيما ما تعلّق منه بموضوع الرحلة الدينية كالرحلة الخيالية إلى الحجّ على جناحي طائر (الورشان) أي القمرى التي أبدعها الشاعر الشعبي الجزائري التلمساني "محمد بن مسايب" في القرن التاسع عشر الميلادي. وقد بلغت قصيدته هذه مائة وعشرين بيتاً (120 بيتاً).¹¹

3. أدب الرحلات في آثار أبي القاسم سعد الله:

سنتناول في هذا المحور الذي يمثل صلب المقالة أدب الرحلات في أعمال أبي القاسم سعد الله من جانبين اثنين: الأول يتعلق بهذا الأدب في دراساته التاريخية، والثاني يتصل بهذا الفن ضمن كتاباته الأدبية. وبعبارة أخرى، سندسّلط بعض الضوء على الرحلات عند سعد الله المؤرخ من ناحية، وعلى فنّ الرحلة عند سعد الله الأديب من ناحية ثانية. ذلك أنّ هذا الفنّ يجمع بين التاريخ والأدب كما يجمع أبو القاسم سعد الله بين المؤرخ والأديب.

1.3 الرحلات في دراسات سعد الله:

تشغل الرحلات حيزاً معتبراً في الدراسات التاريخية لدى أبي القاسم سعد الله؛ فهو يعدّها من أهمّ المصادر والوثائق التاريخية التي يعتمد عليها المؤرخ في أعماله. من أجل ذلك، كان سعد الله يتجشّم أعباء السفر، ويبذل جهوداً علمية مضمّنة تأخذ من صحّته ووقته الشيء الكثير كي يعثر على مخطوط رحلة من الرحلات التي كتبها الرحالة الجزائريون خلال القرون الماضية لحاجته الماسة إليها خصوصاً أثناء تأليفه لمشروعه الكبير: " تاريخ الجزائر الثقافي". وفي هذا الكتاب وتحديدًا في جزئه الثاني، قدّم المرحوم جملة من الدراسات حول عدد معتبر من الرحلات التي وقعت بين يديه، بل ألفيناه يخصّص مصنفًا كاملاً لتحقيق ودراسة بعض الرحلات كرحلة عبد الرزّاق بن حمادوش¹².

وفيما يأتي عرض مختصر لأبرز ما في تلك الدراسات من ملاحظات واستنتاجات، وأفكار وآراء تكشف بعض الجوانب المشرقة في الشخصية العلمية التي كان يتمتع بها المؤرخ الكبير أبو القاسم سعد الله. ولكن قبل ذلك، نوّد أن نورد له في هذا السياق فقرة يبرز من خلالها أهمية الرحلات بالنسبة لجملة من التخصصات إذ يقول عن الرحالة:

" وكان هؤلاء يسجلون انطباعاتهم كلّ حسب مشربه وتكوينه، فمَنهم من غلب على كتاباته الطابع الديني، ومَنهم من اهتمّ بالعلم ورجاله، ومَنهم من تحدّث عن المدن ووصف " المسالك والممالك " . ولكنّ أعمالهم جميعاً أصبحت لا غنى عنها للمؤرخين والجغرافيين والأدباء وعلماء الاجتماع " ¹³.

أفرد سعد الله للرحلات مبحثاً خاصاً في أواخر الجزء الثاني من كتابه: " تاريخ الجزائر الثقافي ". في البداية، تحدث عن هذا الموضوع بوجه عام، فبيّن الإسهام الواضح للجزائريين في كتابة الرحلات لاسيما في القرن الثاني عشر (18م)، كما بيّن أهمّ الرحلات عندهم وهي الرحلات الحجازية المتعلّقة بالحجّ، والرحلات العلمية لغرض طلب العلم. بيد أنّه أشار إلى أنّ الجزائريين كانوا أقلّ إنتاجاً في هذا الفنّ من إخوانهم المغاربة. ويرجع ذلك إلى كون بعض العلماء الذين توزّعوا في العالم الإسلامي لم

يعودوا إلى الجزائر لكتابة رحلاتهم من أمثال عيسى الثعالبي ويحيى الشاوي وأحمد المقرئ وأحمد بن عمار وأضرابهم . ثم ذكر أنّ بعضاً من تلك الرحلات كان مطوّلاً والبعض الآخر مختصراً. أمّا من حيث القالب، فقد كُتِبَ بعضها شعراً فصيحاً أو ملحوناً ، وبعضها جاء نثراً مسجوعاً أو مرسلًا. وبعض الرحلات وصلتنا كاملة، وبعضها لم يصل إلينا منه إلا القليل، وبعضها الآخر لا نعرف إلا أسماءها. وأشار الباحث بعد ذلك إلى قلة احتفال الجزائريين بالرحلات حتى خلال العهد السابق للعثمانيين. ومن أقدم الرحلات التي تنسب إلى ذلك العهد (رحلة التوجيبي) التلمساني في عدة مجلدات، كما أورد أحمد المقرئ في " أزهار الرياض " حديثاً عن رحلة لجده محمد المقرئ التلمساني أستاذ ابن خلدون¹⁴.

أمّا في العهد العثماني، فقد قسّم الرحلات إلى علمية وحجازية؛ ففي العلمية ذكر رحلة مسموعة لصاحبها عاشور بن موسى القسنطيني(توفي بعد سنة 1074 هـ). وقد كان أديباً جَمَّ المعارف ذكياً شديد الفطنة والحفظ، كما كان رحالة دامت رحلته عشرين سنة، وهو مدرس بارع له تلاميذ ومعجبون . وهناك رحلة علمية أخرى مكتوبة هي رحلة عبد الرزاق ابن حمادوش الذي عاش في القرن الثاني عشر، وقد خرج من الجزائر إلى تطوان ومكناس وفاس لطلب العلم والتجارة ثم عاد إلى الجزائر، وكتب رحلته واصفاً فيها جوانب من الحياة العلمية والسياسية والاقتصادية للمغرب في تلك الفترة¹⁵.

ومن هذه الرحلات غير الحجازية رحلة الحاج بن الدين الأغواطي إلى الصحراء التي كتبها سنة 1242هـ، وقد جمع فيها بين الحديث عن الصحراء وواحاتها ومسالكها وعادات أهلها، وبين وصف لجزء من الجزيرة العربية وجربة وقابس وشنقيط ونحوها. وقد استفاد الأوروبيون والأمريكيون مما جاء في هذه الرحلة أثناء اهتمامهم بالصحراء ومحاولة اكتشافه.

أمّا الرحلات الحجازية، فقد أجمل القول فيها في مواضع، وفصّل في مواضع أخرى من كتابه " تاريخ الجزائر الثقافي"، وأشار في الهامش إلى أنّه قد تناوله في بحث مطوّل بعنوان: " الرحلات الجزائرية الحجازية خلال العهد العثماني " قدّمه إلى الندوة العالمية الأولى لمصادر تاريخ الجزيرة العربية التي انعقدت بالرياض خلال شهر أبريل من سنة 1977م، وأضاف أنّ هذا البحث منشور في كتابه: " أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر " ¹⁶. من أجل ذلك، أثّرنا هاهنا أن ننقل إلى هذا الكتاب الأخير لاستكمال هذا الجانب المتعلّق بالرحلات الحجازية لدى الرحالة الجزائريين.

ذكر سعد الله أنّ هذه الرحلات بعضها مكتوب بالشعر، وبعضها الآخر مكتوب بالنثر، وأنّ هذا الأخير هو الأهم في موضوعنا، ولكن لابدّ من التعرّيج ولو قليلا على القسم الأول أيضا. فمن الرحلات المنظومة ما اشتملت عليه تلك القصيدة الطويلة التي تعرف (بالعقيقة)، وهي من نظم شاعر الفصح والملاحون سعيد المنداسي سنة 1088 هـ (1677م).

وموضوعها مدح الرسول ووصف البقاع المقدسة وأثار الحجاز ومنازله وذكرياته الغابرة. وهي من الشعر الملاحون، وقد تناولها الكثيرون بالشرح والتعليق، كما ترجمت إلى الفرنسية.

ومن هذا النوع رحلة محمد بن مسايب الشعرية خلال القرن الثاني عشر للهجرة. وقد أشرنا إليها فيما سبق من صفحات في آخر حديثنا عن خصائص أدب الرحلات. ولكن لابدّ لنا هاهنا من وقفة بخصوص هذه الرحلة الشعرية لابن مسايب؛ فالباحث عمر بن قينة فيما نقلناه عنه في الصفحات السابقة يؤكّد أنّ تلك الرحلة الشعرية كانت خيالية صرفة حتى أنه جعل عنوان دراسته لها: " رحلة على جناحي طائر " ، بينما يرى سعد الله خلاف ذلك مقرّرا أنّ ابن مسايب قد تنقّل فعلا من تلمسان إلى مكة المكرمة. " ... كما وصف الأماكن التي مرّ بها سواء المؤدية إلى الحجاز أو داخل الجزيرة العربية نفسها " ¹⁷. وفي كتاب " تاريخ الجزائر الثقافي " يؤكّد هذا الخبر بصريح العبارة حين قال: " وقد قام ابن مسايب برحلة برية مرّ فيها بعد المدن المذكورة بطرابلس ثم مصر، بينما كان الذين يأخذون طريق البحر يركبون من تونس وينزلون في الاسكندرية " ¹⁸. فما الذي دفع الباحث عمر بن قينة إلى التأكيد على خيالية الرحلة وأنها تمّت على جناحي طائر الورشان (القمرى)، وراح يجتهد في تحليل ذلك وتعليقه؟ ¹⁹.

لعلّ الباحث ابن قينة قد اعتمد في ذلك على ظاهر ما يفهم من مطلع القصيدة القائل:

يا الورشان اقصد طيبة ***** وسلم على الساكن فيها

والحق أنّ هذا التأويل لا يقوم على أساس متين؛ ذلك أنّ مخاطبة طائر الورشان على هذا النحو تعدّ من التقاليد المعروفة في الشعر الشعبي. وكمثال عن ذلك قول الشاعر مصطفى بن إبراهيم في مطلع قصيدة بعنوان: " الورشان ":

أنت عند حمايمك زاهي تنقمر ***** ما دركك مازارقلي ياورشان

ليقول في موضع آخر من تلك القصيدة مترجّيا الورشان أن يصل حبيبه النائي المختفي:

لله ياورشان دير جميل ***** توصل من درقوا شقّ الجبال

يحفظك الخالق الجليل ***** ماترى شدة ولا تهوال²⁰.

يتّضح ممّا تقدّم أنّ مخاطبة الورشان على هذا النحو، وبثّ الأشواق من خلاله إلى الحبيب أمر مألوف في الشعر الشعبي كما أشرنا إلى ذلك آنفاً. وهذا لا يعني بالضرورة أنّ الشاعر لم يرحب به قط، فقد يكون رآه من قبل، ثمّ تمّى رؤيته ثانية فتعذّر عليه الأمر حينئذ، وقد يتاح له تارة أخرى في مستقبل الأيام. وكذلك الشأن مع الشاعر ابن مسايب؛ فمن المحتمل أنّ الحنين إلى طيبة وساكنتها قد عاوده بعد عودته من الحجّ، وعلم أنّ زيارة البيت العتيق ثانية ليست ميسورة، فاكتمى بتبليغ دار الحبيب السلام على جناحي طائر الورشان، ثم أغرت الأشواق خياله وذاكرته فوصف ما رآه في رحلته الأولى ببراعة واقتدار. ويقوى هذا الاحتمال إلى درجة الرجحان في ظلّ تأكيد سعد الله بحسّه التاريخي والأدبي معاً على أنّ الرحلة قد تمّت فعلياً من دون أدنى إشارة إلى احتمال أن تكون ذات طابع خيالي صرف، مع إشارته في كتاب " آراء وأبحاث في تاريخ الجزائر " إلى أنّ الرحلة الحجازية قد تكون روحية أو خيالية. كما أوضح أنّ بعض قصائد المديح النبوي التي يحنّ أصحابها إلى الرسول الحبيب والديار الشريفة يمكن أن تدخل في هذا الباب حتى لو لم يزر أصحابها تلك الديار، أو زاروها قبل أو بعد قرض هذا الشعر²¹. ولعلّ تأويل الباحث عمر بن قينة كان قد بناه على هذا الاحتمال الأخير أي: القيام بالزيارة بعد قرض الشعر فتحوّل الأمنية الخيالية إلى حقيقة واقعية.

بعد ذكر النماذج السابقة من الرحلات المنظومة، يدخل سعد الله في صميم الرحلات المقصودة بالدراسة، وهي الرحلات الحجازية المنثورة التي ينتقل صاحبها بدنياً " من موطنه إلى الحجاز وغيره من مناطق الجزيرة العربية ثم يصف لنا الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية في مزاره، أو يكتفي بوصف بعض المظاهر من ذلك. ومن المصطلح عليه أيضاً أن تكون هذه الرحلات نثرية، يتحدث فيها أصحابها بلغة واقعية أو قريبة من الواقع".

وفيما يأتي لمحة مختصرة عن نموذجين من تلك الرحلات الحجازية النثرية خلال العهد العثماني:

- رحلة أبي راس الناصر:

وهو من علماء القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر، وهو كثير التأليف والترحال. حجّ مرتين على الأقل: الأولى سنة 1204هـ، والثانية سنة 1226 هـ. من تأليفه الكثيرة رحلته التي أطلق

عليها عدّة أسماء منها: " عدّتي ونحلي في تعداد رحلي " ، ومنها: " فتح الإله ومنته في التحدّث بفضل ربّي اونعمته ". ولقد ضمّن رحلته أخبارا عن شيوخه بالمشرق والمغرب. " ولعلّه قد ضمّن أيضا حديثا عن مشاهداته ومعايشاته في الجزيرة العربية. ونحن نقول (لعلّ) لأننا كنّا اطلعنا على هذه الرحلة مخطوطة في المغرب الأقصى وأخذنا منها أثناء زيارة قصيرة ما يتعلّق بالجزائر، ولكننا غير واثقين الآن من محتواها لمعلّق بالجزيرة العربية وأخبار الحجّ عامّة لبعدها عنّا في الوقت الراهن " ²².

. رحلة الورتلاني:

يعلّل سعد الله في بداية حديثه عن هذه الرحلة سبب تأخيرها في التناول بالرغم من تقدّمها الزمني على رحلة أبي راس بكون رحلة الورتلاني هي الوحيدة المطبوعة في شكلها الكامل، كما أنها الوحيدة فيما وصل إلينا، التي تتحدث بإسهاب عن أحوال الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر الهجري (18 م). ولهذه الاعتبارات وغيرها، وقف عندها وقفة أطول مما سبقها. والرحالة هو الحسين بن محمد السعيد الورتلاني (نسبة إلى بني ورتلان بالجزائر) ولد بالجزائر سنة 1125 هـ وتوفي بها سنة 1193 هـ، وهو مرابط ترقى في طريقته حتى أصبح شيخ الطريقة الشاذلية. حدّ ثلاث مرات على الأقل في سنوات: 1153 ، و 1166 ، و 1179 للهجرة. وفي حجّاته الثلاث كان يزور المدن والزوايا في الجزائر وخارجها في تونس ومصر والحجاز، ويأخذ العلم والطريقة على مشائخها وعلمائها، وقد سجّل ذلك في رحلته. وقد أصدر الورتلاني في رحلته حكما قاسيا على النظام السياسي في الجزيرة العربية في تلك الفترة إلى درجة أنّ الحجّ كاد يسقط في نظره بسبب الأوضاع السيئة هناك لازدياد الظلم، وكثرة اللصوص وقطّاع الطرق، وغياب الأمن. ولم تسلم الأوضاع الدينية من ذلك التدهور العام، حيث ذكر أنه رأى في خليص مسجدا ينسب إلى الرسول " قد تهدم وامتأأ أوساخا وصار اصطبلا للدواب ". ووصف الورتلاني المدن والقرى والأماكن والآبار ونحوها، كما تحدث عن عادات وتقاليد أهل مكة والمدينة. وقد اهتمّ أيضا بالناحية العلمية التي أشرنا إلى جانب منها آنفا ²³.

والآن بعد هذا العرض المختصر للرحلات العلمية والحجازية المنظومة منها والمنثورة التي تناولها سعد الله بالدراسة، نحاول فيما يأتي أن نستخلص من ذلك كلّ أبرز السمات المميّزة لشخصيته العلمية في عهدها: التاريخي والأدبي.

أولاً/ البعد التاريخي:

يمكننا أن نجمل الحديث عن هذا البعد في ثلاث سمات أساسية:

1 . سعة الاطلاع: وتتجلى هذه السمة في متون دراساته كما في هوامشها على حدّ سواء؛ فالرجل متمكّن من فنّه، راسخ القدم في علمه، محيط بمادته المدروسة إحاطة قلّ نظيرها. يظهر ذلك بوضوح في استقصائه للمصادر والمراجع بشتى أنواعها، ولغاتها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. كما يتبدّى ذلك في شروحه وتعليقاته الوافية، وفي تحليله الواسع العميق للوثائق والنصوص والمصادر التي يتناولها بالدراسة والتحقيق. كما يكشف أحياناً عن حرقة العلمية في حال ضياع بعض المصادر، أو عدم تمكّنه من الوصول إليها كقوله عن بعد مخطوط رحلة أبي راس: " ... ولكن قاتل الله البعد... " .

2 . المنهجية العلمية: وتبدو هذه السمة عنده في عدة جوانب كطريقة الطرح، والتحليل، والمعالجة، والتوثيق من خلال ضبط المصادر والمراجع بياناتها الكاملة، واعتماد آليات منهجية ذات طابع منطقي وتسلسلي أثناء الطرح والمعالجة كالبدء بالإجمال ثم التفصيل، وتنوع طرق التحليل والتعليل والاستنباط ، والشواهد على ذلك كله كثيرة ولكن لا يتسع المجال لإيرادها في هذا المقام المحدود. ومن ذلك حسّه النقدي كقوله عن رحلة الورتلاني: " ولم يكتب الورتلاني رحلته بيده ولكنه أملاها إملاءً على تلاميذه، كما جرت عادة المشايخ عندئذ، ولذلك تعددت نسخها وكثُر فيها الخطأ، كما افتقرت إلى المنهج القويم، وامتألت بالاستطرادات والتكرار"²⁴. كما ذكر مصدّره وطريقة أخذه منها ونقد بعضها من ذلك. بيد أنه بروح الباحث وما ينبغي أن يكون عليه من الإنصاف والموضوعية يقول في خلاصة دراسته لرحلة الورتلاني: " وهكذا يتضح أن رحلة الورتلاني رغم كلّ ما فيها، تعتبر موسوعة أخبار عن جزء كبير من العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر (18 م). فهي من المراجع التي لا غنى عنها في هذا المجال"²⁵. ولا غرو في كلّ ما ذكرنا وما لم نذكر عن صرامته المنهجية، فالرجل باحث أكاديمي من الطراز الأوّل.

3 . اللغة العلمية: تتسم لغة سعد الله في بحوثه ودراساته العلمية بالدقة والوضوح، والاقتصاد في التعبير دون اقتضاب مغلّ أو إطناب مملّ، مع البعد عن التكلف في الزخرفة الأسلوبية بالرغم من كونه أديبا جميل الأسلوب في الشعر والنثر على حدّ سواء. وهذه هي اللغة المطلوبة في البحث العلمي.

- ثانيا/ البعد الأدبي:

على الرغم من أن دراسة سعد الله للرحلات السابقة كانت لغاية تاريخية في المقام الأول، إلّا أنّه كان في بعض المواضع يستدعي ثقافته الأدبية والنقدية بإصدار بعض الانطباعات والأحكام النقدية العامة بشكل عابر سريع يأتي عرضا في سياق العرض التاريخي دون إطالة في التحليل أو التعليل لأنّ المقام لا يسمح بأكثر من ذلك في معرض البحث التاريخي. من ذلك حديثه عن القالبيين: الشعري والنثري للرحلات عند وصف الأشواق الروحية التي تسبق زيارة البقاع المقدسة. يقول في هذا السياق: " كما أنّ الرحلات الشعرية تشترك في ذلك إن لم تفق الرحلات النثرية في وصف الأحاسيس الدينية والروحية، وقد كنّا ذكرنا قصيدة عبد الله بن عمر البسكري التي مطلعها:

دار الحبيب أحقّ أن تهواها ***** وتحنّ من طرب إلى ذكراها

وعندما حلّ محمد بن عبد الكريم المغيلي بالحرم اهتزت نفسه ونطق بقصيد مؤثر افتتحه بقوله:

بشراك يا قلب هذا سيّد الأمم ***** وهذه حضرة المختار في الحرم

أما في العهد العثماني، فقد كانت الموشحات والقصائد تسبق الزيارة الواقعية. ولكن روح الشعر عندهم قد ضعفت نسبيا فعمدوا إلى الوصف بالنثر كما فعل ابن عمار والورتلاني". وفي موضع آخر أشار إلى رحلة شعرية فصيحة لمحمد بن منصور العامري التلمساني فرغ منها سنة 1162 هـ، فقال عن هذه القصيدة: " وهي قصيدة همزية متوسطة الجودة وصف فيها مراحل رحلته من تازة حيث كان يقيم إلى الحرمين الشريفين ثم منهما إلى الشام. والقصيدة تبدأ هكذا:

أزعم السير إن دعت أدواء ***** لشفيح الأنام فهو الدواء " 26

2.3. أدب الرحلات في إبداعات سعد الله:

تعرفنا فيما سبق على أدب الرحلات في الدراسات التاريخية التي كتبها أبو القاسم سعد الله المؤرخ. ونتعرّف فيما يأتي على هذا الأدب في الكتابات الإبداعية لدى سعد الله الأديب. ويتعلّق الأمر هاهنا برحلتين اثنتين في المقام الأول: الأولى إلى المغرب سنة 1973، والثانية إلى الجزيرة العربية سنة 1977.

- رحلة سعد الله إلى المغرب:

غطت هذه الرحلة أكثر من ثلاثين صفحة من الكتاب المذكور آنفا. ولضيق المقام، سنكتفي في هذا السياق بالحديث عن أهم الأفكار والآراء التي أبداهها الكاتب في هذه الرحلة، وكذلك سنفعل مع الرحلة الثانية، ثم نختم حديثنا باستخلاص أبرز الخصائص الأسلوبية المميّزة لأدب الرحلات عند أبي القاسم سعد الله.

أشار الكاتب في البداية إلى قلة الرحلات الجزائرية القديمة إلى المغرب والأندلس، ذلك أنّ الاتجاه العام للرحالة الجزائريين والمغاربة أيضا كان إلى المشرق للحج أو لطلب العلم أو الهجرة. كما أشاد بالرحلات التي كتبها المغاربة كالعبدري والعايشي والزياني والدرعي وغيرهم مؤكّداً أنّ غنى عنها لمن أراد الكتابة عن تاريخ الجزائر الماضية. ثم ذكر رحلة ابن حمادوش الجزائري إلى المغرب التي يقوم بتحقيقها. سجّل الكاتب في هذه الرحلة كعاداته في كلّ رحلاته يوميات يودع فيها مشاعره ومشاهداته وقراءاته ولقاءاته بشكل عفوي أولاً. وبعد العودة، وجد في تلك اليوميات ما يصلح للنشر، وما لا يصلح إلا بعد انقضاء جيل. من أجل ذلك، فضّل التركيز على الحادثة نفسها دون التقيّد بكلّ ما في اليومية مقتصرًا على الأحداث والمناسبات الثقافية و المتصلة بها. وهذا الكلام يفهم منه أنّ في جعبته الكثير من هذه الرحلة، ولكن الظروف لم تسمح بنشر كلّ تفاصيلها.

وأوضح الكاتب أنّ الغرض الأساسي لرحلته جمع مادة جديدة نادرة لكتابه " تاريخ الجزائر الثقافي ". ولكنّه تعرّف خلال ذلك على عدد من رجالات المغرب الحديث من كل الأعمار والانتماءات الفكرية والسياسية. وقد عبّر عن سروره وإعجابه بكثير مما شاهده خلال جولاته منوّها بحريته المطلقة في الكتابة بقوله: " إذ لم أكن مدينا بالولاء لأحد، فلا الجزائر أوفدتني حتى أشعر بالدين لها، ولا المغرب استدعاني حتى أتقيّد بدعوته ".

بدأ الكاتب تسجيل انطباعاته من أجواء الطائرة التونسية التي كانت تقلّ ركّابا من الأقطار الثلاثة الأمر الذي استثار في نفسه الشعور بالوحدة المغربية. يقول في هذا الصدد: " وشعرت عندئذ أنّ الطائرة كانت حمامة سلام ووحدة بين الأقطار الثلاثة، فقد تجمّع فيها الجزائريون والمغاربة والتونسيون، واندمجت فيها طبائعهم المتكاملة: لطافة التونسي وإنسانية الجزائري وشهامة المغربي". وعند الوصول، تحدّى التعب وتجوّل في مدينة الرباط ليلا، ثم عاد إليها في الصباح الباكر، وعبّر عن إعجابه بجمالها في شوارعها وبنائاتها ومنشآتها وحدائقها. وكان مما لفت انتباهه وزاد في

إعجابه تسمية عدد من شوارعها بأسماء مدن عربية عتيقة وعواصم عربية حالية كالقاهرة ودمشق وعمان وبغروت وحمص والقدس وجدة وحلب والطائف " وهو تقليد أجاد فيه المغاربة وهو بلا شك مظهر من مظاهر العراقة والمحافظة على التراث العربي الإسلامي القديم". كما تحدث عن جامع السنة المبني على الطراز المغربي الأندلسي الجميل سنة 1785م وموقعه المتميز الذي حاول الفرنسيون بناء كنيسة مكانه دون جدوى لمعارضة المغاربة لهم.

ومن الأماكن التي وصفها وتحدث عنها الخزانة العامة أو المكتبة الوطنية وهي مقصده الأساسي من الرحلة لاسيما قسم المخطوطات والوثائق مشيدا بالتسهيلات التي لم يكن يتصورها، وبكفاءة القائمين عليه. وقال في هذا السياق: " بدأت أطلب المخطوطات الجزائرية التي وجدت منها هناك ثروة لا تقدر بثمن"²⁷. وفي المكتبة التقى ببعض الأساتذة الجزائريين والمغاربة من أبرزهم الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني رئيس قسم المخطوطات بالخزانة العامة الذي كان مهتما بالحركة الإصلاحية في الجزائر وله صور تذكارية مع ابن باديس والإبراهيمي وأعضاء آخرين من جمعية العلماء سنة 1935م. وذكر الكتاني لسعد الله أسراراً عن خطط ابن باديس لو طال به الأجل وعن الإبراهيمي يجهلها الكثير من الجزائريين.

ومن أبرز القضايا التي تحدث عنها الكاتب في هذه الرحلة في أكثر من موضع قضية التعريب التي يبدو أنها كانت تشغل باله كثيراً باعتبارها مسألة استكمال للسيادة الوطنية وتعزيز للانتماء الحضاري. فهو يشيد بتجربة المغرب في ميدان التعريب الذي قطع فيه أشواطاً كبيرة على مستوى التعليم بمختلف أطواره، وعلى مستوى الكتب المطبوعة والمجلات والجرائد، وفي مجال المعاملات الإدارية، وفي الحياة العامة على نطاق واسع. والكاتب خلال الإشادة بذلك يلمح ضمناً إلى الصعوبات والعراقيل التي يواجهها التعريب في الجزائر آنذاك إذ يقول على سبيل المثال بعد تعداد مظاهر التعريب في المغرب: " وليس هناك عقد ولا حساسيات كتلك التي تركها الاستعمار في بعض البلدان الأخرى". وعند حديثه عن التعريب الجامعي وبوادر نجاحه في المغرب، يعتمد إلى التصريح بدلاً من التلميح بخصوص تعثر التعريب في الجزائر إذ يقول: " ولكن هذه الخطوة المغربية في ميدان التعريب ستكون بدون شك دعماً لتجربة التعريب الجزائرية التي مازال بعضهم يحاول محاصرتها والتضييق عليها"²⁸. ويرى الكاتب أن نجاح

التعريب في المغرب يعود في جانب كبير منه إلى غيرة المثقفين المغاربة على لغتهم العربية مشيدا بذلك البيان التاريخي الذي وقّعه 500 مثقف دعما للتعريب سنة 1970 .

- رحلة سعد الله إلى شبه الجزيرة العربية:

تمّت هذه الرحلة في شهر أبريل من سنة 1977 م للمشاركة في ندوة دولية بالرياض حول مصادر دراسات تاريخ الجزيرة العربية. وقد شارك الكاتب في تلك الندوة ببحث عنوانه: " الرحلات الجزائرية الحجازية خلال العهد العثماني ". وبعد عودته، كتب رحلته التي بلغت عشرين صفحة. وقد عبّر في بدايتها عن تميّز السفر إلى الجزيرة العربية بخاصية الاستعداد الروحي. ثم أشار إلى أنّ ما سجّله في هذه الرحلة من اليوميات والانطباعات والمشاهدات لم يسبق له مثيل في كلّ رحلاته لأهمية الحادث في حياته كونها أول زيارة إلى هذه البقاع المتميزة من ناحية، ولأهمية الجزيرة العربية في تاريخ العرب والمسلمين من ناحية ثانية. ولو نفّح ذلك وطبع لجاء في حجم مجلد وسط، ولكنه اكتفى في هذه الرحلة بجوانب محددة أهمها موضوع الندوة وما يمت إليه بصلة من زيارات وحفلات ومشاهدات وأحاديث وقرئات.

بدأ الكاتب حديثه بالإعراب عن تدمّره من التفتيش الدقيق الذي تعرّض له في مطار الجزائر، وذكر بعض ما حدث لمثقفين زاروا الجزائر من إحراجات مماثلة في هذا المطار تدمّروا هم أيضا منها كثيرا. بعد ذلك، تحدث عن الوفود المشاركة في الندوة والأقطار التي قدموا منها؛ فلاحظ وفرة المشاركين من العالم الانكلوسكسوني، وغياب علماء الشرق الأقصى، وتمثيل تركيا وإيران، وغياب عدة دول عربية كليبيا وموريطانيا ولبنان واليمن الجنوبية والصومال. وكانت حصّة الأسد لمصر فيما مثلت سوريا بعالم واحد هو الدكتور كامل عياد. أما دول المغرب العربي، فقد مثلت المغرب بستة مشاركين، وتونس بخمسة، أما الجزائر، فقد مثلها اثنان فيما وجّهت الدعوة إلى آخرين ولكن لم يحضروا، ويعلل الكاتب ذلك الغياب فيقول: "...ولكن يبدو أنّ أهمّ سبب... هو الكسل العقلي الذي يعاني منه الجزائري والذي يحرمه من المساهمة في الندوات والمؤتمرات العالمية وتمثيل بلاده فيها أحسن تمثيل". وأشاد بعد ذلك بالتنظيم الجيّد للندوة، وشدة الانضباط في احترام الوقت على عكس ما يشاع من أنّ العرب لا قيمة للوقت عندهم. وعرّج على بحوث الندوة التي تفاوتت مستوياتها منوها في ذات الوقت بحرية النقاش خلال أيام الندوة. وذكر بعض العلماء السعوديين الذين التقى بهم، ومن أبرزهم الشيخ حامد

الجاسر صاحب مجلة (العرب) الشهيرة وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة. كما وصف العاصمة الرياض التي تجعلك تحسّ أنك في أعظم عواصم العالم الحديثة. وقد أشاد بمكتبة جامعة الرياض وبمتحفها الوطني. وعند زيارة الحرمين الشريفين عبّر عن بالغ تأثره إلى درجة العجز عن التعبير²⁹.

وقبل ختام هذه المقالة، نستعرض باختصار أبرز الخصائص الأسلوبية لأدب الرحلات في الكتابة الإبداعية عند أبي القاسم سعد الله. وقد أشرنا في البداية إلى أهمّ تلك الخصائص في فنّ الرحلات بوجه عام، وهي دقة الوصف وبراعة التصوير، والسرد القصصي الجميل والمتدفق، وختام المواقف بشكل ممتع ومثير. فما نسبة حضور هذه الخصائص في رحلات سعد الله؟ ونبادر بالإجابة فنقول: إنّ هذه الخصائص حاضرة في تلك الرحلات في عدة مواضع بقدر كبير من الجمال الفني البديع بالرغم من صغر حجم تلك الرحلات، بيد أنّ المقام لا يتّسع إلى الإكثار من التمثيل، فسنكتفي في هذا السياق بنموذج واحد يشتمل على تلك الخصائص جميعها. يقول سعد الله في رحلته المغربية: " كانت الشمس قد غربت ولم يبق في الأفق إلا الشفق. وطلع من الشرق القمر الذي أخذ يكبر، وظهرت النجوم في السماء والمصابيح في الأرض، هنا في الرباط وهناك في سلا التي يفصلها (عن الرباط) وادي بورقراق. وظهرت مياه المحيط تغمرها حمرة الشفق... وعلى بعد رأينا القطار كأنه خيط من الضوء يتحرك وسط الظلام الذي بدأ يلف الأفق البعيد، قال صاحبي: إنه قطار طنجة قادما إلى سلا. هكذا بدت لي الطبيعة وأنا واقف أمام المحيط...". ففي هذا المقطع الإبداعي يتعانق جمال الوصف والتصوير مع السرد القصصي الرشيق المتدفق في تناغم بديع وبيان ساحر. أما ختم المواقف بشكل ممتع ومثير، فنلمسه في آخر هذه اللوحة الفنية الناطقة: "...تذكرت الماضي والحاضر، فاغرورقت عيني وصمت في وجوم، ولاحظ صاحبي ذلك فقال: إنك لم تنظر شيئا. لورأيت قصر الحمراء. إنّ المرء هناك يتفطر كبده ويصاب بالخرس. لقد أضعنا أشياء لا تعوّض! قلت: هذا يكفي! انظر هنا، انظر هناك! إنني أعيش في عصر آخر. دعني أتأمل دعني!"³⁰.

خاتمة:

تناول البحث في البداية أدب الرحلات من الناحية النظرية ببيان مفهومه، وأهم خصائصه الفنية إلى جانب أهمية الرحلات لدى العلماء والأدباء، وأبرز أنواعها، ثمّ تطرق البحث إلى موضوعه الرئيس المتعلق بأدب الرحلات لدى سعد الله من الجانبين: التاريخي والأدبي.³¹

وقد خلص البحث إلى جملة من النتائج نلخصها فيما يأتي:

. كشف أدب الرحلات التي درسها سعد الله المؤرخ عن سعة اطلاعه، والتزامه بالمنهج العلمي في التحقيق والتوثيق والتحليل في لغة علمية واضحة دقيقة، مع استدعاء ثقافته الأدبية والنقدية كلما اقتضى الأمر ذلك.

. أسفر أدب الرحلات لدى سعد الله الأديب عن سمات لافتة كدقة الملاحظة، واستيعاب المشهد الموصوف، أو الموضوع المعبر عنه بمهارة ظاهرة، إلى جانب شجاعته الأدبية في تسجيل الوقائع، وإبداء الرأي بموضوعية بالرغم من حساسية بعض المواقف. يضاف إلى ذلك أسلوبه الجميل الذي يؤكد موهبته الإبداعية.

. اتضح رجحان كفة الاهتمام التاريخي لديه حتى في رحلاته التي كتبها باعتبار بواعثها التاريخية من ناحية، وما أبانت عنه من تعلقه البالغ بمصادر المادة التاريخية كالوثائق والمراجع والمخطوطات من ناحية ثانية.

. وفي الختام يقترح الباحث أن يكون " أدب الرحلات " محورا للدراسات المشتركة بين عدد من التخصصات كالأدب والتاريخ وعلم الاجتماع لتحقيق نوع من التكامل المعرفي فيما بينها.

قائمة المراجع:

الكتب :

- 1- أبو القاسم سعد الله :
أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981.
- تاريخ الجزائر الثقافي ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.
- تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983
- 2- أغناطيوس كراكنتشوفسكي، " تاريخ الأدب الجغرافي العربي"، قسم 1، ترجمة، صلاح الدين هاشم، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- 3- التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة، الشركة الوطنية للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1983
- 4- حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط2، 1983
- 5- حسين محمد فهمي، أدب الرحلات (سلسلة عالم المعرفة، 138 ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989.
- 6- عمر بن قينة، رحلات ورّحّالون في النثر العربي الجزائري الحديث، دار الأمة، الجزائر، ط2، 2009

المجلات :

7- رضي الرحمن القاسمي، الرحلة وأدبها في اللغة العربية، دراسة تاريخية، مجلة الداعي، دار العلوم، ديوبند، رجب 1434هـ، أبريل 2013، ع 7.6، سنة 37.

المواقع الالكترونية :

30 / 08 / 2015 www.ruouaa.com أمة الله الواحد، أدب الرحلات،
30 / 08 / 2015 Saleh4.blogs pot.com. صالح شرف الدين، أدب الرحلات.
2015 / 08 / 30 <https://ar.wikipedia.org/wiki>

الهوامش:

¹ ينظر، أغناطيوس كراكتشوفسكي، " تاريخ الأدب الجغرافي العربي"، قسم 1، ترجمة، صلاح الدين هاشم، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

² حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ص6.

³ <https://ar.wikipedia.org/wiki-30/08/2015> تاريخ الولوج:

⁴ ينظر، حسين محمد فهميم، أدب الرحلات (سلسلة عالم المعرفة، 138، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989، ص6.

⁵ المرجع نفسه، ص17

⁶ رضي الرحمن القاسمي، الرحلة وأدبها في اللغة العربية، دراسة تاريخية، مجلة الداعي، دار العلوم، ديوبند، رجب 1434هـ، أبريل 2013، ع 7.6، سنة 37. (الصفحات غير مرقمة في النسخة الالكترونية).

⁷ صالح شرف الدين، أدب الرحلات. Saleh4.blogs pot.com 30 / 08 / 2015.

⁸ <https://ar.wikipedia.org/wiki-30/08/2015>

⁹ حسني محمود حسين، المرجع السابق، ص8، 9.

¹⁰ 30 / 08 / 2015 www.ruouaa.com أمة الله الواحد، أدب الرحلات،

¹¹ عمر بن قينة، رحلات ورخّالون في النثر العربي الجزائري الحديث، دار الأمانة، الجزائر، ط2، 2009، ص53.

¹² أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981، ص221

¹³ أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص203

¹⁴ سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص396.

¹⁵ المرجع نفسه، ص398، 399.

¹⁶ نفسه، ص401

¹⁷ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول، ص180

¹⁸ ينظر، تاريخ الجزائر الثقافي، ص403.

¹⁹ ينظر، عمر بن قينة، المرجع السابق.

²⁰ التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة، الشركة الوطنية للطباعة والنشر والتوزيع،

الجزائر، 1983، ص551، 552.

²¹ ينظر، أبحاث وآراء...، ص180، 181

²² المرجع نفسه، ص 181 - 186

²³ نفسه، ص 187 - 196

²⁴ نفسه، ص 187 - 188

²⁵ تاريخ الجزائر الثقافي، ص412.

²⁶ نفسه، ص402.

²⁷ تجارب في الأدب والرحلة، ص204 - 209.

²⁸ نفسه، ص230 - 231 .

²⁹ نفسه، ص 236 - 249 .

³⁰ نفسه، ص273، 274